مكّنُوا للأزهر في أفريقيا الجديدة

أفريقيا التي غاب معظمها عن الوجود الإنساني في ظلام الجاهلية والوثنية والاستعمار والرق منذ دحا الله الأرض أخذت تنبعث وتنتعش وتتحرر. وكان هذا الانبعاث وما تلاه استجابة لنفخة الصور التي صدرت عن الثورة الناصرية في مصر فدوى صداها في ارجاء الشرق كله فأيقظ الراقد ونبه الغفلان.

وكان الإسلام من قبل ذلك قد أرسل بصيصًا من نوره من خلال هذه الظلمة الغاشية على أيدي المتاجرين من العرب والمهاجرين من المسلمين، فرأى من هواهم به الله من الأفريقيين أن فوق الأرض التي يخيم عليها الظلام سماء ينبثق منها النور، وأن للإنسان الذي استُضعف واستُغل إلهًا قاهرًا فوق عباده يجعلهم إخوة بالإيمان وسواسية بالعدل، فربأوا بإنسانيتهم عن الذل، وضنوا بكرامتهم على الهون. إلا أن هذا البصيص ظل خابيًا في قلوبهم لا يشع ولا يشيع لانقطاعه عن مشرق الوحي، فلم يصله به سبب من لغة الكتاب، ولا ... من حديث الرسول، فهم يحفظون بعض الآيات عن تلقين لا عن فهم، ويؤدون كل الشعائر عن تقليد لا عن فقه، ومع ذلك نفذت أشعة الإسلام من بين أطباق هذا الغمام إلى قلوب الوثنيين الآخرين في سرعة الدعوة المستجابة، لأنه دين الفطرة فلا تعقيد فيه ولا عسر، ولأنه مظهر الوحدانية فلا وساطة فيه ولا سر، فدان به في الحبشة ثلاثة ملايين ومائتان وخمسة وأربعون ألفًا وثلاثمائة وتسعون؛ وفي أوغندة ثلاثمائة وستون ألفًا؛ وفي الصومال الشمالي والشرقي والأوسط مليون وسبعمائة وستة وأربعون ألفًا وثلاثمائة وواحد وأربعون، وفي زنجبار ثلاثمائة ألف؛ وفي كينيا مائتا ألف. وفي تنجانيقا مليون ونصف؛ وفي روديسيا ونياسالاند مائة وثمانية وثلاثون ألفًا؛ وفي موزمبيق ستمائة وخمسون ألفًا. وفي جنوب أفريقيا ثمانية وثمانون ألفًا. وفي أفريقيا الغربية الفرنسية سبعة ملايين ونصف. وفي نيجيريا ثلاثة وعشرون مليونًا؛ وفي توجولند ثلاثون ألفًا؛ وفي غانا مائة وخمسون ألفًا؛ وفي غمبيا مائة وعشرون ألفًا. وفي ليبريا نصف مليون؛ وفي الكامرون نصف مليون؛ وفي الكونغو أربعمائة ألف، وذلك إحصاء أتت عليه عشر سنين، فمن الطبيعي أن يكون قد ازداد بالدخول في الإسلام وبالولادة من المسلمين.

ولقد دهش لهذه الجاذبية في الإسلام دعاة المسيحية ورواد الاستعمار من مبشري الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين والطليان والأمريكان وتساءلوا فيما بينهم: كيف عجزوا عن تنصير الوثنيين بالطرق المؤدية والوسائل المغرية من تعليم وتطبيب وتمدين وإغراء بالمال وإيحاء بالقوة، حيث استطاع الإسلام الصامت الأعزل أن يتسلل ويتغلغل وينتشر من غير حكومات تسنده ولا جمعيات ترفده ولا مغريات تجذب إليه. ثم حاول المتخصصون منهم والمتفلسفون فيهم أن يجيبوا عن هذا السؤال وأن يكشفوا عن هذه الحال بالدرس والتحليل فلم يستطيعوا. فسلموا بالأمر الواقع وقالوا لا حيلة إلا أن نستغل هذه القوة الكامنة في الإسلام في إخراج الوثنيين البدائيين من الظلام إلى النور، حتى إذا فتحوا أعينهم على أضواء مدينتنا تهافتوا عليها تهافت الفراش. قال أحد مؤرخي الكنيسة وقد صار كردينالاً ما ترجمته: " إن الإسلام قنطرة للشعوب الأفريقية يعبرون عليها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية؛ فمن حقه أن نعامله بالمياسرة والحسنى، ومن واجبنا أن نساعده على اتساع نطاقه وامتداد أفقه، بإجراء الأرزاق على المساجد، وتوفير الأموال للمعاهد، ليكون رائدًا لمدنية فرنسا فتفتح على يديه البلاد ".

هذه هي قوة الإسلام في رأي المبشر، وذلك هو أثره في رأي المستعمر، فكيف نعوق هذه القوة ونضعف ذلك الأثر بتركهما إلى الطبيعة ينفذان من الحواجز والسدود كما ينفذ الماء اللين السلس بين جلاميد الصخر! سيخرق الماء الحجر على طول الزمن ولا شك فيتدفق الشلال ويفيض النهر وتخصب الحياة. ولكننا لو نسفنا الحجارة من طريقه، وكشفنا الركام عن منبعه، اختصرنا الزمن وقربنا المسافة. والأداة التي تنسف وتكشف وتخط وترود هي الأزهر. والأزهر في القاهرة والكعبة في مكة هما الكلمتان اللتان تجمعان معنى الإسلام في ذهن الأفريقي المسلم، يتجه إلى المسجد الحرام في معنى عقيدته، كما يتجه إلى الأزهر الشريف في معنى شريعته. ولم يقصر الأزهر في مد القارة المظلمة بالنور على قدر طاقته وفي حدود إمكانه. فأرسل نفرًا من فقهائه ووعاظه إلى الصومال والحبشة وبعض جهات أخرى. ثم رأى أن يكون هؤلاء الدعاة والهداة من أهل تلك الشعوب استرشادًا بقول الله عزت حكمته: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: 4] فأنشأ مدينة البعوث وآوى إليها طلاب العلم من

شباب أفريقيا وآسيا وكفل لهم الغذاء والكساء والمسكن وأخذ يعرب ألسنتهم ويفقه أفئدتهم، ويزودهم بوسائل الدعوة ليجلوا كلمة الله في أذهان قوم لبستها عليهم العجمة والجهالة. وإن عدد هؤلاء الطلاب الأغراب ليربى اليوم على ثلاثة آلاف.

ولكنه عدد لا يزال أقل مما يطلبه الجهاد الروحي في أفريقيا الجديدة: فإن تراجع الاستعمار عن أكثرها يفتح الأبواب ويهيئ الأسباب للمجاهدين في سبيل الدين واللغة فلابد إذن من تمكين الدولة للأزهر في هذه الأرض البكر بأن تمده بالمال وتسنده بالقوة ليحقق لها عن طريق الخير والحق ما كانت ترجوه فرنسا منه عن طريق الشر والباطل.

إن بذل المال والجهد في معونة الأزهر يحرر أفريقيا الوثنية من عبودية الروح والعقل والجسد. وهو كسب سياسي ضخم حاول المستعمرون طويلاً أن ينالوه بالدهاء والإغراء والدماء والزمن فما استطاعوا. ثم كانت عاقبتهم أن اجتثوا من فوق الأرض الطيبة كم يجتث النبات الطفيلي السام من حقول الحنطة! ذلك بأنهم استعلوا على أصحاب الأرض. فتميزوا عليهم بالقوة، واستأثروا دونهم بالثروة، وتركوهم للعري والجوع والمرض والجهل والمشقة.

أما الإسلام فسيدخل فيهم دخول النور في العين والسرور في القلب والبرء في السقم والصلاح في الفساد والنظام في الفوضى، فلا يجدون في مجتمعه سيدًا لأنه أبيض، إلا مسودًا لأنه أسود، وإنما يجدون الناس فيه أحرارًا كما ولدوا، وفاقد على واجد، ولا يتسلط متساوين أينما وجدوا، يتقاسمون بينهم طيبات الرزق وفرص العيش، لا بتسخط قوي على ضعيف.

فإذا استبطنوه بالفهم الصحيح، واستيقنوه بالإيمان الخالص، رفعهم إلى أفق الإنسانية الحرة والإسلامية الكريمة، حيث لا يتميز لون على لون، ولا يستطر عنصر على عنصر، وإنما يكون فيه أبو بكر وعمر وعثمان، بجانب بلال وصهيب وسلمان!.

إن الأزهر هو الثكنة المحمدية لجند الله، أسلحتها المصاحف لا القذائف، ووسيلتها الحياة لا الموت، وغايتها التعمير لا التدمير، وغنيمتها الخير للناس والسلام على الأرض. فإذا كان أولياء الأمر منا وأصحاب الرأي فينا حراصًا على أن يكونوا كما

جعلهم الله قوادًا لحرية الشعوب، وروادًا لسكينة العالم، فليضموا إلى ثكنات القوى العسكرية، ثكنة القوة الأزهرية، ليجمعوا ين أسلحة المادة وسلاح الروح، ويوائموا بين مادية العلم وروحية الدين، ويقيموا فوق أسواق الرقيق التي أقامها الاستعمار في أفريقيا المكروبة المنكوبة مآذن للحق ومنائر للهدى وملاجئ للحرية.

إن الفرصة متاحة للعمل، وإن الأرض مهيأة للزرع، وإن الأزهر مستعد للبذر، فما على الدولة إلا أن تسوق السحاب إلى النفوس الظمأى فتروى، وإلى البلاد الميتة فتحيا. ويومئذ تلد أفريقيا الرجال، وتستغل الاستقلال، وتبرهن لأوروبا البيضاء أن المرء بجوهره لا بمظهره، وأن جوهر الإنسان واحد لا يختلف باختلاف لونه في الناس، ولا يتغير بتغير موقعه من الأرض.